كتاب التوبة

﴿ حقيقة التوبة ﴾

اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور : علم . وحال . وفعل والأوّل موجب للثانى والثانى موجب للثالث ايجابا اقتضاه سنة الله فى الملك والملكوت . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها سموما مهلكة وحجابا بين العبد و بين كل محبوب . فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالبٍ على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبو به تألم . فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبو به ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال و بالماضى و بالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذّنب المفوّت المحبوب الى آخر العمر . وأما بالماضى فبتلافى مافات بالخير والقضاء ان كان قابلاً للخير . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها . وكثيرًا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدّمة والترك كالثمرة . وبهذا الاعتبار جاء في الأثر (الندم توبة) إذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه *

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الايمان صدره فان من عرف أن لاسعادة فى دار البقاء إلاّ فى لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محولٌ بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاّ اتباع الشهوات ولا مقرّب من لقائه إلاّ الاقبال على الله بدوام ذكره وعلم أن الذنوب سبب كونه محجوبا مُبعَدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب . وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم . وهكذا يكون الايمان الحاصل عن البصيرة ومن لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ماورد من الآيات والآثار فقد قال تعالى ﴿ وَتوبوا إلَى اللهِ جميعاً أيُّها المؤْمِنونَ لَعَلّكُم تُفلِحُونَ ﴾ وهذا أمر على العموم وقال تعالى ﴿ يَا أيُّها الَّذينَ آمنوا توبوا إلى اللهِ تَوبَةً نَصُوحاً ﴾ ومعنى النصوح الخالصُ لله تعالى خاليا عن الشوائب *

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إنّ اللهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهّرِينَ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ التّائِبُ مِنَ الذّنْبِ كَمَنْ لاذَنْبَ لهُ ﴾ والأخبار فى ذلك كثيرة *

﴿ وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام ﴾

لايخفى أن وجوبها على الفور أمر لايستراب فيه إذمعرفة كون المعاصى

مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك لكون الزنى مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت كسائر المعاصي لأنها للايمان كالمأكولات المضرّة للأبدان فكما أنها تغيّر مزاج الانسان ولا تزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين *

وأما وجوب التوبة على الدّوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب . فان خلا في بعض الأحوال عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله . فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب . وتَرك أسبابه بالتشاغل بضدّها رجوع عن طريق الى ضده . والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصوّر الخلوّ في حق الآدميّ عن هذا النقص وانما يتفاوتون بالمقادير فأما الأصل فلا بدّ منه ولهذا قال عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ﴾ واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره *

وانما أطلقنا الوجوب في كل حال والتوبة عن بعض ماذكر من الفضائل

لا الفرائض لأنا نعنى بالواجب مالا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوّع أى لمن تريدها فانه لا يتوصل اليها إلاّ بها *

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لايخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نَفَس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بُخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ﴿ كَلاّ بَل رَانَ عَلى قُلوبِهِم ما كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب . كما لا يكفى فى ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام ﴿ أتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُها ﴾ فاذا لا يستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارُها

آثارَ تلك السيئات *

ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلاّ على تفويت مامضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله وانما قال هذا لأن العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نَفَسٍ جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبيناً فان كنت لاتبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة . ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى ﴿ وأَنْفِقوا مِمَّا رَزَقْناكم مِنْ قَبلِ أن يَأْتِيَ أحَدَكم المَوتُ فَيَقولَ رَبِّ لولاَ أخَّرتَنِي إلى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصَّدَّقَ وأكُنْ مِنَ الصَّالحينَ ولَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفساً إذا جاءَ أجَلُها ﴾ وقد قيل فى معنى الآية أنه يقول حالتئذ ياملك الموت أخرنى يوماً أتوب فيه الى ربى وأتزوّد صالحا لنفسى فيقول فنيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتزهق نفسه ولمثل هذا يقال ﴿ وَلَيسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ

حتّى إذا حضرَ أحدَهمُ الموتُ قالَ إنّى تُبتُ الآنَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنّما التّوبَةُ على اللهِ لِلّذينَ يعملونَ السّوءَ بجهالة ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿ أتبع السّيّئةَ الحسنةَ تمحُها ﴾ ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثانى) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم *

﴿ بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة ﴾

اعلم أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة فان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه . وكل قلب زكىّ طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلىّ الذى لا مردَّ له وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قَدْ أفلحَ مَنْ زكّاها ﴾ *

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام

لايزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول الاّ أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظف الثوب أصلا مالم يغيّر صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف الممكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية *

هذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه ببعض آيات وأخبار (فكل استبصار لايشهد له الكتاب والسنة لايوثق به) قال تعالى ﴿ غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوبِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذى يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفو عَنِ السَّيِّئاتِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّ اللهَ عزّ وَجلَّ يَبسِطُ يَدَهُ بالتَّوبَةِ لمُسىءِ اللَّيلِ إلى النَّهارِ ولمُسىءِ النَّهارِ إلى اللَّيلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها ﴾ وبسط اليد كناية عن طلب التوبة وقال صلوات الله عليه ﴿ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَن لاذَنبَ لهُ ﴾ *

﴿ بيان ما تكون عنه التوبة وهى الذنوب ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشئ إلا بعد معرفته . واذا كانت التوبة واجبة كان مالايتوصل اليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذًا واجبة . والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أوفعل *

ثم أن مثارات الذنوب تنحصر فى أربع صفات صفات ربوبية وصفات

شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية *

فأما ما يقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التي هى كالأمهات لأكثر المعاصى *

(الثانية) هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدّعوة الى البدع والضلال *

(الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لأجل الشهوات *

(الرابعة) الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب *

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين . وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة الى

بيان تفصيل ذلك فانه واضح *

﴿ انقسام الذنوب الى صغائر وكبائر ﴾

اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر . وقد كثر الاختلاف فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة . وهـذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ إن تَجتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّآتِكُم وَنُدخِلْكُم مُدخَلاً كَرِيماً ﴾ وقال تعالى ﴿ الَّذينَ يَجتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثمِ وَالفَواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ ﴾ وقال بعض السلف كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقد روى عن الصحابة والتابعين فى عدد الكبائر أقوال . وذهب أبو طالب المكي الى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

(أربعة فى القلب) وهى الشرك بالله . والاصرار على معصيته . والقنوط من رحمته والأمن من مكره (وأربع فى اللسان) وهى شهادة الزور . وقذف المحصن والسحر . واليمين الغموس . وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التى يقتطع بها مال امرء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى النار (وثلاث فى البطن) وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب . وأكل مال اليتيم ظلما . وأكل الربا وهو يعلم (واثنتان فى الفرج) وهما الزنا واللواط (واثنتان فى اليدين) وهما القتل والسرقة (وواحدة فى الرجلين) وهو الفرار من الزحف أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشرين (وواحدة فى جميع الجسد) وهو عقوق الوالدين وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما

وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وأن يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما .
هذا كلام أبي طالب وهو قريب إلاّ أنه لم يرد تفصيلها بعدّ ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع الى مايعلم استعظامه إيّاها والى مايعلم أنها معدودة في الصغائر والى مايشك فيه فلا يدرى حكمه وربما قصد الشارع الابهام ليكون العباد على وجل وحذر فلا يتجرّؤن على الصغائر . ثم أن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع مجاهداً نفسه فان امتنع لعجز أوخوف فهذا لايصلح للتكفير أصلا *

﴿ بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب عليها العبد ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر لو صبّ عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ خَيْرُ الأَعمالِ أدوَمُها وَإنْ قَلَّ ﴾ ومنها أن يستصغر الذنب . فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى : وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامَهُ يصدر عن نفور القلب عنه وذلك النفور يمنع من شدّة تأثره به واستصغارَهُ يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات.

وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ مرَّ على أنفه فأطاره . وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامىّ فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها فى تسويد قلبه كمن يقول أما رأيتنى كيف مزّقت عرضه وكيف فضحته حتى خجلته وكيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله إيّاه ولا يدرى أنه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال إثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله به . وذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان الغرور بالله ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جناية فتغلظت به فان انضاف الى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه وفى الخبر ﴿مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً﴾ وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا *

فحركات المقتدى بفعالهم فى طورى الزيادة والنقصان . تتضاعف آثارها

إمّا بالربح وإمّا بالخسران *

﴿ تمام التوبة وشروطها ودوامها ﴾

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب . وعلامته طول الحسرة والحزن واسكاب الدمع والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبته وبكاؤه . وأى عزيز أعز عليه من نفسه . وأى عقوبة أشد من النار . وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى . وأى مخبر أصدق من الله ورسوله . ولو حدّثه انسان واحد يتطبب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال فى الحال حزنه . فليس ولده بأعزّ من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار . ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها الى النار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجي . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة كمن ينفر عن عسل فيه سم ولو كان فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة . فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلاّ بمثل هذا الايمان . ولما عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون . فلا ترى إلاّ معرضاً عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم الى الموت . وينبغي أن يجد

هذه المرارة فى جميع الذنوب *

وأما القصد الذى ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت *

ومن أهم مايجب تداركه الحقوق المالية فمن تناول مالا بغصب أوخيانة أوغبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أوستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو أكل أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم وليحاسب نفسه على الحبّات والدوانق قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فان عجز فلا يبقى له طريق إلاّ أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم الثابتة فى ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لايعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار *

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو بعيبهم فى الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات *

ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة *

﴿ أقسام العباد فى دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو (السابق بالخيرات) المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع الى ربها راضية مرضية *

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بان تكون هى (النفس اللوّامة) إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهى أغلب أحوال التائبين لان الشرّ معجون بطينة الآدمى قلما ينفك

عنه . وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذينَ يجتنبونَ كبائرَ الإثمِ والفواحشِ إلاّ اللَمَمَ إنّ ربَّكَ واسعُ المغفرةِ) فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (والذينَ إذا فعلوا فاحشةً أوظلموا أنفسهمْ ذكروا اللهَ فاستغفروا لِذنوبِهمْ) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وفى الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أى الحين بعد الحين وفى الخبر (كلُّ بنى آدمَ خطّاؤنَ وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ) فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب وهو يودّ لو كفى شرها فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه يسوّل نفسه ويسوّف توبته يوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى (النفس المسوّلة) وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخرونَ اعترفوا بذنوبِهِمْ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة

ويقع أمره في المشيئة ان تداركه الله بفضله ألحقه بالسابقين والا فيخشى عليه

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرّارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وانتظاره مع هذه الحالة المغفرة من الله تعالى غرور فان المقصّر عن الطاعة المصرّ على الذنوب الغير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران يعدّ عند أرباب القلوب من المغتوهين كما ان من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمق المغرورين . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة . والعجب من عقل هذا المغتوه وتر ويجه حماقته إذ يقول (ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره) ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار . واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك . وكسلك بترك التجارة ليس يضرك . فاجلس في بيتك . فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب . فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس . السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وانما ينال ذلك بالكسب . هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد . وان سنته لا تبديل لها فيهما

جميعا وانه قد أخبر إذ قال (وَانْ لَيْسَ للإِنسان إلاّ ما سَعَى) فنعوذ بالله من الضلال *

﴿ مايفعله التائب بعد الذنب ﴾

اعلم أن الواجب على التائب ان كان جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق هو أن يبادر الى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويخفض من كبره فيما بين العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول (رب ظلمت نفسى وعملت سوأ فاغفر لى ذنوبى) وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وبالجملة فينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات .

واعلم انه ليس كل استغفار نافعا ففى خبر (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله) وقال بعض السلف . الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة . استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . وذلك لان

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ﴿ ما أصرَّ من استغفرَ ولوْ عادَ فى اليوْم سبعينَ مرَّةً ﴾ ثم ان للتوبة ثمرتين

(أحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له

(والثانية) نيل الدرجات . وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فانه لا تخلو ذرة من خير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر . فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تتقيها فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام فرابعة بقولها استغفارنا يحتاج الي استغفار كثير . لا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر

الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه

﴿ دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار ﴾

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله ولا يبطل الشئ إلا بضده ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة *

وأما الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهى أربعة أنواع (الاول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذا ماورد من الاخبار والآثار في ذم المعاصى ومدح التائبين (الثانى) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة ونحوها فانه لم يرد بها القرآن والاخبار ورودَ الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعى التوبة *

(الثالث) أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فينبغي أن يخوّف به . وفى خبر ﴿ إنّ العبدَ لَيُحرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصيبُهُ ﴾ وقال

بعض السلف . ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصانا فى المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه . وهو كما قال لان اللعنة هى الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير و يسر له الشرّ فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون وبالجملة فالاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا فمن ابتلى بشئ منها كان عقوبة له وان أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته و يوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته (الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك *

والمدار فى هذا الباب على الفكر النافع وهو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وليعتبر بانه لو مرض فأخبره طبيب نصرانىّ بان شرب الماء البارد يضره و يسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة ومفارقته للدنيا لا بد منها فيقول كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصرانى طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبّه وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا . ومتى استشعر قلبه

ذلك انبعث خوفه واذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر . وتوفيقُ الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة والاولى *

كتاب الصبر والشكر

﴿ فضيلة الصبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وَجعلْنا منهمْ أئمّةً يهدُونَ بأمرِنا لمّا صَبرُوا) وقال تعالى (وَلَيَجْزِيَنّ الذِينَ صَبرُوا أجرَهُمْ بأحسَنِ ما كانوا يَعملونَ) وقال تعالى (أولئكَ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرّتين بما صَبرُوا) وقال تعالى (إنّما يُوَفّى الصّابرُونَ أجرَهم بِغَيرِ حِسابٍ) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ووعد الصابرين بانه معهم فقال تعالى (إنّ اللهَ مَعَ الصّابرين) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أولئكَ عليهم صلواتٌ من رَبهمْ ورَحمةٌ وأولئكَ همُ المهتدُونَ) ومن الاخبار قوله صلى الله عليه وسلم (الصّبرُ نِصفُ الايمان) وسئل صلى الله عليه وسلم عن